حول وحدة الوجود

فيما كتبه الأستاذ دربني خشبة

للأســـتاذ معروف الرصافي

كتب الأستاذ دربني خشبة في العدد (٥٩١) من الرسالة مقالاً كرر فيه شتائمه السابقة لأهل وحدة الوجود عامة ، وللرصافي خاصة ، ونحن هنا لا نريد أن نقابل تلك الشتائم بمثلها ، وإن كنا أقدر عليها من غيرنا ، لأننا نكره النزال في حومة لا يخرج منها الغالب إلا وهو ألأم من المغلوب

يقول الأستاذ خشبة : « كيف تكون الكائنات مظاهر لهذا الإله العجيب الذي يقول أنصار وحدة الوجود إنه لا وجود إلا له ... أما هذه المخلوقات فهي باطل — هي وهم ... ولست أدري كيف يكون الرصافي وهماً وباطلاً . . » إلى آخر ما هنالك من أقاويل أرجف فيها

إن الأستاذ خشبة يتهم خصمه بنقيض اعتقاده ، ويحمل كلامه على ضد مراده ، ثم يؤاخذه على ذلك مؤاخذة إزدال وتشنيع ، وهذا لعمر الله لم يعهد في تاريخ البحث والمناظرة لأحد قبل الأستاذ

أنا لا أشك في أن الأستاذ ، لو قرأ في الصفحة ٢١ من رسائل التعليقات ، ما نقلناه عن محيي الدين بن عربي من كلامه حول ما جاء في الحديث النبوي « أصدق كلمة قالتها العرب ، قول لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) وما أوضحناه نحن وذكرناه هناك ، لا حمر خجلاً من قوله إن هذه المخلوقات باطل ، وإنها وهم

إن أهل وحدة الوجود ، يعطون الكائنات وجوداً لا يدركه الفناء ، لأنهم يرون وجودها ووجود الله واحداً . وهذا هو كل ما يريدون من قولهم بوحدة الوجود ، فالموجود في رأيهم واحد لا اثنان ، وهو الله ذو الوجود الكلي المطلق اللانهائي ، وما هذه الكائنات عندهم ، سوى مظاهر للوجود الكلي ، وصور قائمة به ، كالأمواج في البحر ، فإن الموجود في البحر ، واحد وهو الماء ، وما الأمواج إلا مظهر من مظاهر الماء ، وصور قائمة به ، وليس للأمواج وجود غير وجود الماء ، ولا ريب أن وجود الأمواج حق ، لا وهم من الأوهام

والظاهر أن الذي حمل الأستاذ خشبة على جعله المخلوقات وهماً ، هو قولهم : إنه لا وجود إلا لله ، ولو افتكر الأستاذ جيداً ، لأدرك أنه لا يلزم من ذلك أن تكون المخلوقات وهماً ، ولنضرب له مثلاً أوضح من أمواج البحر : هرماً مبنياً من الثلج ، فنسأل الأستاذ هل لهذا الهرم وجود غير وجود الماء ؟ كلا ! وهو مع ذلك حق ، لا وهم من الأوهام ، بل كل ما هنالك أنه غير قائم بذاته ، بل بالماء ، فهو من هذه الناحية ، يقال له باطل على طريق التشبيه أي كالباطل ، وبذلك فسر محيي الدين ابن عربي قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، إذ قال : « اعلم أن الموجودات كلها ، وإن وصفت بالباطل فهي حق من حيث الوجود ، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه يرى ما سوى الله باطلاً ، من حيث أنه ليس له وجود من ذاته ، فحكمه حكم العدم ، وهذا معنى قوله ما سوى الله باطل ، أي كالباطل ، لأن العالم قائم بالله لا بنفسه »

ثم قال : (والعارف إذا وصل إلى مقامات القرب في بداية عرفانه ، ربما تلاشت هذه الكائنات ، وحجب عن شهودها بشهود الحق ، لا أنها زالت من الوجود بالكلية ، ثم إذا كمل عرفانه ، فإنه يشهد الحق والخلق معاً في آن واحد)

هذا ما قاله محيي الدين ، وأين هو مما يقوله الأستاذ خشبة من أن هذه المخلوقات باطل ، وإنها وهم . ولا ريب أن شهود الحق والخلق معاً في آن واحد كما قال محيي الدين ، هو كشهود الماء والهرم الثلجي معاً في آن واحد ، وهذه المرتبة عند الصوفية ، تسمى مرتبة الجمع ، كما هو مسطور في كتب التصوف ، فكما أن وجود الهرم الثلجي حق ، لا وهم ، وإن لم يكن له وجود غير وجود الماء ، كذلك وجود المخلوقات حق ، لا وهم ، وإن لم يكن لها وجود غير الوجود الكلي أو غير وجود الله ، وكما أن هذا الهرم ، مظهر من مظاهر الماء ، وصورة قائمة بالماء ، كذلك

المخلوقات كلها مظاهر للوجود الكلى ، وصورة قائمة به ، فهى كهذا الهرم ليس لها وجود غير الوجود الكلى

أليس من العيب عند الأستاذ خشبة ، أن يتهم الصوفية بضد ما يقولون ، ثم يشنع عليهم قولهم كل هذا التشنيع . وكيف جاز للأستاذ أن يتغاضى عن فصل كتبناه تحت عنوان (الحق والباطل ، فى رأى أهل التصوف) وقد صرحنا فيه بأن كل ما وقع فهو حق عند أهل وحدة الوجود وأنه لا باطل عندهم إلا المحال

٢ — ومن شتائم الأستاذ خشبة للرصافى قوله : (إن الرصافى يرى أن القرآن من تأليف محمد ، بدليل ما دأب على ذكره من قوله : قال محمد فى القرآن)

فنقول : إن هذا القول قد قاله بعض المشايخ من ذوى العمائم عندنا فى بغداد قبل الأستاذ خشبة ، وهو يدل على أنهم يجهلون اختلاف علماء الإسلام فى القرآن ، هل هو المعنى ، أو المعنى واللفظ معاً ، وأنه ذهب فريق منهم إلى أن القرآن هو المعنى القائم بذات الله ، دون الألفاظ ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) ولم يقل على سمعك ، حتى إن الإمام أبا حنيفة أجاز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة ، ثم إن هؤلاء اختلفوا فى ألفاظ القرآن لمن هى ، فمنهم من قال بأنها لرسول الله ، ومنهم من قال بأنها لجبريل ، ومنهم من قال غير ذلك كما هو مسطور فى كتب العقائد الإسلامية

وأما الفريق الثانى فذهبوا إلى أن القرآن هو المعنى واللفظ معاً ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) والنطق يشمل المعنى واللفظ معاً ، وأجاب الفريق الأول بأن (هو) فى قوله : (إن هو إلا وحى يوحى) ، عائد إلى القرآن ، لا إلى المصدر المفهوم من (ينطق) ، وإذا كان الأستاذ خشبة لم يطلع على هـذا ، فليقرأ ما كتبه الإمام السيوطى في الإتقان على الأقل

وعلى كلا القولين لكلا الفريقين ، لا يلزم من قول الرصافى (قال محمد فى القرآن) كونه من تأليف محمد ، أما على القول الأول فلأن التأليف يشمل المعنى واللفظ معاً ، ولا يكون للفظ فقط ، والقرآن هو المعنى الموحى من الله على قول هؤلاء ، فيكون معنى قولنا (قال محمد فى القرآن) عبر محمد عن المعنى الموحى إليه من الله . وأما على القول الثانى ، فظاهر ، لأن قول محمد هو قول الله ، بدليل (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى)

٣ — ومن شتائم الأستاذ خشبة للرصافى قوله : بأن الرصافى لا يرى معنى للبعث الذى يؤمن به المسلمون وجاء به القرآن الكريم

فنقول سبحانك هذا بهتان عظيم ، إن الرصافى إنما قال عند الكلام عن البعث : (أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم ، فلم أقف على كلام للصوفية فى تخريجه على مذهبهم وتوجيهه) قال : (والذى أراه أنه معتقد صرف لا يقوم إلا بالإيمان ، وأن ليس للعقل فيه مجال ، ولا يخفى أن الإيمان بالغيب ، يتسع لأكبر منه وأبعد) قال : (ومن العبث إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم إلا بالإيمان فى جميع الأديان ، وليس الدين إلا إيماناً بالغيب ، كما جاء فى القرآن (يؤمنون بالغيب) فالإيمان بالغيب هو أساس الأديان كلها)

وإنما قلنا إنه ليس للعقل فيه مجال ، لأن العقل البشرى ، عاجز عن أن يدرك قيام الموتى من قبورهم شعثاً غبراً ، ينفضون التراب عن رؤوسهم ، إلى ربهم ينسلون

أما أنا فأعترف للناس أجمعين بأن عقلى عاجز عن إدراك حقيقة البعث على هذا الوجه ، وإن آمنت به ، فإن كان عقل الأستاذ خشبة ، يستطيع أن يقيم لنا الأدلة العقلية والعلمية على ذلك ، فليتفضل ، فنحن له من الشاكرين ، وبهديه من المهتدين

ولكن كيف يستطيع ذلك ، وهو ينادى بأعلى صوته أنه مؤمن بالله ورسوله إيماناً ساذجاً كإيمان العجائز ، ولو كان فى استطاعته إقامة الأدلة العقلية على البعث ، لما كان إيمانه كإيمان العجائز ، ذلك الإيمان التقليدى الذى يزلزله أدنى شك ، ويزعزعه أقل ريب

وإلى القراء بعض فقرات مما كتبه الرصافى عند كلامه على البعث ، قال :

(وإن كان البعث مما لا تدركه العقول ، فإن الإيمان به معقول ومقبول ، ذلك لأن الغاية المقصودة منه ، هى اعتقاد المؤمن بيوم الدين ، الذى هو يوم الحساب والجزاء ، ذلك اليوم الذى يجازى فيه المحسن ، ويعاقب المسىء . ولا ريب أن الإنسان إذا كان مؤمناً بيوم الدين إيماناً صادقاً ، اجتنب الشرور ، وكف عن العدوان ، وبذل الجهد فى الأعمال الصالحة ، وهذا هو كل ما تريده جميع الأديان فى كتبها السماوية ، وجميع الحكومات فى قوانينها الأرضية » . قال : « وعليه ، فلا حرية فى أن الإيمان بالبعث ، يكون من أهم الوسائل المؤدية إلى السعادة فى الحياة الدنيا ، لأن المؤمن به ، وبيوم الجزاء ، يستحيل عليه عقلاً وعادة ، أن يرتكب الشرور ، وأن يعمل غير الصالحات ، ومتى كان كذلك ، كان صالحاً للحياة الاجتماعية بكل ما اشتملت عليه من حقوق وواجبات »

ثم قال : « وتالله إنى لا أرى فى الوسائل العلمية والأدبية ، وسيلة تؤدى إلى إصلاح الإنسان فى حياته الاجتماعية ، أنفع ، ولا أنجع ، ولا أروع من إيمانه بيوم الجزاء المترتب على إيمانه بالبعث ، ولا ريب أن الفضل كله فى ذلك ، راجع إلى دين الإسلام القائل بالبعث دون غيره من الأديان »

هذا ما قاله الرصافى فى رسائل التعليقات من الكلام الذى أعرب فيه عن كل هذه المعانى السامية ، ولكن الأستاذ خشبة يقول إن الرصافى لا يرى للبعث معنى فإنا لله وإنا إليه راجعون

أنشدك بالله أيها القارئ الكريم ، هل فى هذا الكلام ما يدل على أن قائله كافر بالبعث ، وهل يجوز للأستاذ خشبة أن يشتم الرصافى هذه الشتيمة المنكرة ، ويتهمه بأنه لا يرى للبعث معنى

من الجائز شرعاً ، أن أقابل هذه الشتائم بمثلها ، « والحرمات قصاص » وليس الأستاذ خشبة بعجزى أن أكايله مثل هذا الشتم صاعاً بصاع ، إن نثراً فنثر ، وإن شعراً فشعر ، ولكنى كما قلت آنفاً أكره النزال فى حومة لا يخرج منها الغالب إلا وهو ألأم من المغلوب

أنا لا أطالب من الأستاذ خشبة ، ولا من غيره ، أن يترك إيمانه الساذج ، إلى إيمان تسايره الحكمة ، ويؤيده المعقول ، فإن ذلك منى فضول . كما أنى لم أكتب رسائل التعليقات لدعوة الناس إلى وحدة الوجود ، بل كل ما هنالك أنى قرأت كتاب التصوف الإسلامى للدكتور زكي مبارك ، فعلقت عليه بعض ما عندى فى التصوف من معلومات ، وأنا خاضع لكل رد يأتينى بالحق ، لا بالباطل . أما التغيير والتبديل ، بقصد التكفير والتشنيع ، فشيء لا يرتضيه حتى الكفر المركب ، فضلاً عن الإيمان الساذج ، والسلام على من ترك هوى النفس ، ولم يقل إلا الحق .

بغداد — معروف الرصافى

روائع الأدب اليونانى

فى

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

بقلم الأستاذ دريني خشبة

يصدر قريباً

يطلب من مجلة الرسالة

الثمن ٣٠ قرشا عدا أجرة البريد